عن الدين والتدين ومظاهر الاحتفاء بالعنف

حوار مع د. معتز الخطيب

يدور هذا الحوار حول مجموعة من المسائل محل البحث والنقاش، تبدأ بمحاولة فهم أسباب جاذبية جماعات الجهاد، ونوعية هؤلاء المنتسبين إلى تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، وتاريخ العمليات الانتحارية وعلاقتها بمفهوم الانغماس الفقهي. بالإضافة إلى محاولة فهم العلاقة بين الدين والتدين، ولماذا يتم الاحتفاء بالقمع والقتل في مصر، وكيف يمكن تفسير ذلك بالمقارنة مع ما عُرف عن الشعب المصري من مظاهر تدين. وما علاقة نظام الانقلاب العسكري بالمفهوم السائد للتدين، وكيفية الخروج من منطق تقسيم العالم إلى دار كفر ودار إسلام الذي ساد في التاريخ الإسلامي وتستعيره حركات العنف اليوم، وسبل استثمار مقاصد الشريعة اليوم والدور المنوط بها، إلى غير ذلك من التساؤلات.

معتز الخطيب

عن الدين والتدين ومظاهر الاحتفاء بالعنف

حوار مع د. معتز الخطيب

حاوره: محمود شعبان، محمد عزام، محمد زكي

يدور هذا الحوار حول مجموعة من المسائل محل البحث والنقاش، تبدأ بمحاولة فهم أسباب جاذبية جماعات الجهاد، ونوعية هؤلاء المنتسبين إلى تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، وتاريخ العمليات الانتحارية وعلاقتها بمفهوم الانغماس الفقهي. بالإضافة إلى محاولة فهم العلاقة بين الدين والتدين، ولماذا يتم الاحتفاء بالقمع والقتل في مصر، وكيف يمكن تفسير ذلك بالمقارنة مع ما عُرف عن الشعب المصري من مظاهر تدين. وما علاقة نظام الانقلاب العسكري بالمفهوم السائد للتدين، وكيفية الخروج من منطق تقسيم العالم إلى دار كفر ودار إسلام الذي ساد في التاريخ الإسلامي وتستعيره حركات العنف اليوم، وسبل استثمار مقاصد الشريعة اليوم والدور المنوط بها، إلى غير ذلك من التساؤلات.

د. معتز الخطيب هو أستاذ المنهجية والأخلاق في مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، في كلية الدراسات الإسلامية، بجامعة حمد بن خليفة في قطر.

*** في العالم العربي عامة والدول التي تعيش فيها أقليات مسلمة خاصة هناك مجموعات تأثرت بالفكر الجهادي أو القتالي بعد ظهور داعش وحركات المتطرفة الأخرى. ما أسباب هذا التأثر؟ وكيف يمكن أن تُعالج هذه المسألة؟**

– جماعات العنف هي نتاج اختلال أمرين: الأول: الفشل في إنشاء الدولة الحديثة التي تقوم بوظائفها وتقيم العدل بين الناس وتعبر عن مصالحهم وتصون عليهم دينهم ووحدتهم وحرياتهم وحقوقهم. والثاني: نتاج التدخلات الخارجية والأجنبية في شؤون المسلمين وإهانة موروثهم ودينهم، واحتلال أراضيهم وفرض حكام مستبدين عليهم بالقوة لرعاية مصالح الأجنبي. ولذلك وجدت حركات العنف في أطروحة الجهاد ملجأ، وأساءت تطبيقها في ظل واقع متغير ومعقد سياسيًّا وهيكليًّا. ومن هنا فإن جاذبية هذه الحركات

لبعض الشباب المتحمس ناجمة عن هذا الوضع، فهي جاذبية إنجاز في زمن انحطاط ومهانة، وغالب من ينجذب لمثل تلك الحركات يأتي من خارج التقليد الإسلاميّ؛ لأن من عنده معرفة شرعية عميقة لن ينساق وراء هذه الجماعات التي هي في الحقيقة خارجة على التقليد الإسلامي أصلا. ولا يُتوقع لهذه الحركات أن تخبو وتندثر إلا بواحد من عاملين: الأول: المعرفة الشرعية العميقة. والثاني: إزالة أسباب الظلم والعدوان على المسلمين، وإقامة العدل وقيام الدولة بوظائفها وتمثل مصالح الناس.

*** أظهرت دراسة العديد من استمارات الانتماء إلى داعش أن مستوى المعرفة الشرعية للمنتسبين متدنٍ وفق تقويم المتقدمين لأنفسهم. فهذه الاستمارات يملؤها كل من يريد الانتساب للتنظيم وتطلب منه تحديد مستواه. ما دلالة ذلك؟**

– يوضح ذلك أن غير المتعمقين في علوم الشريعة أو المبتدئين فيها أو الذين ليس لديهم اطلاع عليها يسهل التحكم بهم والسيطرة عليهم؛ لخلوهم من معلومات سابقة مخالفة لما يُملى عليهم من التنظيم، وقد شاع لدى الصوفية عبارة مهمة هنا وهي "التخلية قبل التحلية"، فكيف لو كانت "التخلية" موجودة أصلاً؟ عندها يسهل تلقينهم وتوظيفهم وتوجيههم؛ لأنهم يكونون أدعى للاستجابة، فاستجابتهم حينها تكون استجابة خالي الذهن، ولذلك يُروى عن د. حسن الترابي رحمه الله أنه حَمِد الله أن أهل السودان كانوا أميين دينيًّا؛ لأنه سهّل عليه طرح خطاب "التجديد" في رأيه.

أما من كان لديه علم سابق (تقليدي) فيَصعب إقناعه بأفكار مخالفة للتقليد الإسلامي، لأن فكر داعش لا يتوافق مع التقليد الفقهي الإسلامي، فداعش خارجة على التقليد نفسه، كما لا يتوافق مع الفكر الحديث بالضرورة، ولذلك يغلب على الأميين دينيًّا أو المسلمين الجدد أو التائبين الانضمام إليهم.

*** متى ظهرت العمليات الانتحارية تاريخيًّا وما أسباب إقبال غير المتعلمين من حملة الشهادات المتدنية كالابتدائية ومن صغار السن عليها، كما تظهر ذلك الاستمارات التي تمت دراستها من وثائق داعش؟**

– موضوع العمليات الانتحارية قديم وسابق على السياق الإسلامي، فقد ظهرت في اليابان أثناء الحرب العالمية الثانية فيما عُرف بعمليات الكاميكازي حيث قام طيارون انتحاريون بتفجير طائراتهم عبر توجيهها إلى الأساطيل الأمريكية، وكذلك استُعملت من قبل نمور التاميل في سريلانكا وغيرها.

أما في السياق الإسلامي فالمسألة ترجع إلى سياق المقاومة الفلسطينية التي استعملت هذا النوع من العمليات، وحصل جدل بشأن شرعيتها، وكان الشيخ يوسف القرضاوي أول من أفتى فيها – فيما أعلم – ولكن فتواه لم تكن تبيحها بشكل مطلق، أي أنه لم ير العمليات هدفا في ذاتها وإنما اعتبرها وسيلة للمقاومة إن لم يتعين غيرها، ورأى أنها ترجع لتقدير السياسيين. في حين وقف بعض كبار علماء السلفية ضد جوازها كالشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ مفتي السعودية. ولكن أصل الفكرة يرجع إلى مسألة مقررة في كتب الفقه الإسلامي، وهي (الانغماس في العدو) وحقيقته: أن المسلم الواحد له أن يَهجم على صف الكفار ويقاتل وإنْ علم أنه يُقتل.

ولكن الإشكال في هذا أنه يجب التفريق بين مسألة "الانغماس" الفقهية وبين "العمليات الاستشهادية/الانتحارية"؛ لأن الانغماس عند الفقهاء مرتبطٌ بجملة أمور: ١. أنها وسيلة لهدف ومقصد مشروع، وهو "الإثخان في الكفار" وتحقيق "النكاية"، ٢. أنها تكون في ممارسة "الجهاد"، وليس في ممارسة فئة أو جماعة تَزعم الجهاد. ٣. أنها تكون في الكفار المحاربين، وليس فيمن تُكَفرهم هذه الجماعة أو تلك، وليس في كل كافر، بل الكافر المعتدي فقط. أي أن ما تقوم به هذه الجماعات لا علاقة له حقيقة بمسألة الانغماس الفقهية هذه.

*** وفقًا للواقع الحالي في مصر هل ما زال الشعب المصري متدينًا بطبعه؟ ما مدى اتساق هذه المقولة مع واقع الشارع المصري بعد الانقلاب؟**

– أعتقد أن التدين مسألة ملتبسة لجهة مدلولها ومظاهرها التي نحكم بناء عليها بأن هذا متدين أو لا. التدين تجربةٌ، وهو مفارِق للدين من حيث المفهوم والتصور. فالتدين تجربة من جهة أنه يتشكل وفق روافد عدة، منها التقاليد والأعراف الاجتماعية التي يتم إدماجها في مفهوم "الدين" بحيث تكتسب كثير من الممارسات الاجتماعية أبعادًا دينية فتصبح (تدين)، ولذلك حرَص الدين على محاصرة مثل تلك الأنماط عبر مفهوم "البدعة" لضبط التدين وفق معايير الدين. فالتدين تجربة لجهة أنه يعكس مفاهيم المجتمع عن الدين، وحين تَضعف المعرفة الدينية وتقوى النوازع الدنيوية تتقلص حدود الديني وتتضخم حدود الاجتماعي، وتتعاظم الشعائريات والطقوس، فتذوي المعاني الدينية ليبقى رسومها وأشكالها، بل ربما جَمَع التدين جملةً من النقائض كالحرص على الصلاة مع إتيان الموبقات مثلاً، وهو المعنى الذي أشار إلى إمكانه الحديث النبوي المعروف "مَن لم تَنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له"، ولذلك وجدنا ذلك الخلاف بين نظر المتصوفة للعبادة ونظر الفقهاء لها، فالمتصوفة حرصوا على تحقيق روحها ووقوعها من

جهة الباطن، والفقهاء حرصوا على تحقيق صورتها الشرعية وإجزائها بحسب الظاهر. أي أنه يمكن أن يتخلف التدين عن الدين، ويمكن أن توجد هياكل الديني مع خواء المعنى. بهذا المعنى لا يمكن القول: إن التدين قد تَقلص في المجتمع المصري؛ لان التدين يتخذُ أشكالاً متعددة، بعضها زائفٌ وبعضها مغشوشٌ بحسب عمق المعاني والقيم الدينية معرفةً وتطبيقًا.

*** هل هناك صلة ما بين إخفاق الإسلاميين في السلطة من جهة، وعزوف المصريين عن مظاهر التدين من جهة أخرى؛ هل يعبر ذلك عن رفض التجربة الإسلامية برمتها؟**

– سبق أن أكدت سنة ٢٠١٢م على أهمية الفصل بين الإسلام والإسلاميين، بمعنى: أن الدين يجسد المثال بينما الإسلاميون يعكسون أشكال متنوعة من الفهم البشري النسبي التي تجسد فضاءات متعددة للمعنى الديني، ولذلك تتفاوت الفهوم والتطبيقات التي تسمى "إسلامية" بالمعنى الثقافي والاجتماعي لكلمة "إسلامي". المشكلة الآن أن من ماهى أو طابقَ بين "الإسلامي" و"الإسلام" وقع في مأزق حقيقيّ، وربما صرفه ذلك عن الثقة بالدِّين نفسه، سواء لجهة فشل التجربة أم لجهة غياب النصر، بحسب جهة النظر إن كنت مع أو ضد. ولكن من المهم تَذَكر أن الحديث هنا ليس عن عموم الناس، بل عن جمهور محدود من المنغمسين في تصورات الإسلام السياسي والمؤمنين بها إيمانًا عميقًا، فبعض هؤلاء هم الذين حصل لهم ذلك التشوش وربما اختلت تصورات بعضهم فترك الدين أو خرج على التصورات "الإسلامية" وتجاوزها.

أما عامة الناس المهتمين بمعاشهم فقط، وانتظام حياتهم الاجتماعية فلا تغيرات في سلوكهم، أي أننا نتحدث عن مفهوم التدين مرة أخرى. فأصحاب "التدين السياسي" هم الذين يشهدون تحولات حقيقية واختلالات. أما أصحاب "التدين الشعبي" فأمرهم مختلف. فالتدين الذي حمل مضمونًا أيديولوجيًّا أو منزعًا تغييريًّا ثوريًّا هو الذي يشهد اليوم تغيرات ومخاضات، وليس التدين التقليدي أو التدين الشعبي. ولكن لا بد من القول أيضًا إن صورة المشايخ عامة قد اختلت بفعل متغيرات الثورات العربية، سواء أولئك الذين دعموا الثورة أم الذين دعموا الأنظمة، فالجميع وقع في أخطاء من وجهة نظر الناس، ولم تعد تلك الحرمة والهيبة والنزاهة التي كانت لصورة الشيخ، كما يمكن ملاحظة ذلك في الإعلام الاجتماعي، لأن الثورات ثوّرت الأفكار والصور المتوارثة أيضًا، خصوصًا على مستوى القيم والممارسة الخلقية التي اتضح أن كثيرًا من رموز الخطاب الديني يفتقرون إليها.

*** برزت بعد الانقلاب على الإخوان في مصر ظاهرة الشماتة في مساحات ليست قليلة في الشارع المصري، خاصة من أولئك المحسوبين على دوائر الصراع في مصر سواء من مؤيدي "الشرعية" أو مؤيدي "الانقلاب"، كيف يمكن فهم ذلك والمفترض أنه مضادٌّ لمقولة التدين؟**

– أساليب الشماتة والفرح بالقتل والسخرية والاستهانة بالدماء هي نتاج حالة من انتشار ثقافة العنف، الثقافة التي غذتها نظم الاستبداد وانفلتت في اتجاهات شتى مع تهاوي هياكل بعض الدول في المنطقة وبروز هويات ما قبل دولتية؛ لأن دول الاستبداد أسفرت عن حقيقة المأزق العربي الذي أخفق في صناعة المواطن فلجأ الناس إلى دوائر طائفية وعرقية وقبَلية ليحتموا بها. بمعنى أن الاحتفاء بالموت يتم تحت دعاوى تضفي عليها مشروعية في نظر أصحابها حتى لو كانت ثأرية، فدعاة الدفاع عن "الدولة" ينزعون عن خصومهم صفة الإنسانية لاستباحتهم استباحةً مطلقة ويهللون لذلك، وهو ما يعكس منزعًا فاشيًّا، وكثيرٌ من هؤلاء لا يدّعون التدين أصلاً، من إعلاميين وفنانين ومثقفين ينتسبون إلى العلمانية أو حتى الليبرالية!. فالحالتان المصرية والسورية تحديدًا قدمتا واقعًا سائلاً منفلتًا من أي معقولية أو أخلاقية، سوى الكراهية أو الدوغمائية. وفي المقابل، كثيرٌ من جماعات العنف الدينية تستبيح خصومها تحت لافتة "الردة" فتسقط عنهم كلَّ حُرمة حتى لو كانوا مسلمين. بمعنى أن استباحة الدماء لا بد أن تكتسي طابعًا مشروعًا ولو برانيًّا حتى لا تبدو بمظهر حيوانيّ يشبه قانون الغاب.

*** ما مدى قدرة الدولة على التحكم بمفهوم التدين لدى الشارع المصري، فعلى سبيل المثال: كيف يمكن الجمع بين مظاهر التدين والقبول بقتل المعارضين السياسيين بدعوى خطورتهم على "الدولة" في الوقت نفسه؟**

– تنبهت الدولة القومية الاستبدادية إلى أهمية الدين في معركتها مع الإسلام السياسي، ولذلك احتكرت صياغة التدين والخطاب الديني (الرسمي) عبر موظفيها في المؤسسات الدينية والإعلام. وهي تحرص دومًا على صياغة تديّن يدافع عن خياراتها السياسية ويجمع المتناقضات؛ لأن الاتساق والتماسك لا يعنيها في شيء، فهي ليس صاحبة أطروحة أو خطاب معرفي حتى تهتم لهذا أصلاً. فهي تدفع دومًا باتجاه تقديم مبررات دينية لكل خياراتها السياسية المتناقضة، ولذلك لا تجد غضاضة في قتل الناس والاحتفال بالمولد النبوي في الوقت نفسه، أو في الخطابة عن عظمة الإسلام ورعايته لحقوق القطط في وقتٍ تسجن فيه وتعذب وتقتل الآلاف من البشر. فالسلطة الاستبدادية على وجه الخصوص بدت عارية من أي معنى

إنساني، وهو التجسد الحقيقي لتوحش السلطة، والذي هو تقهقر ملحوظ لمفهوم تغول الدولة الذي كنا نتحدث عنه من قبل، فالسلطة المتوحشة تضحي بالدولة لتبقى هي في سلطة ولو محدودة أو منقوصة.

*** تحدثتَ في إحدى محاضراتك أن فقه الأقليات لا يُعتبر فقهًا مستقلاً لترشيد الأقليات المسلمة منهجيًّا، وطرحتَ فكرةً جديدةً في ضوء المنظور القرآني وهي مفهوم "أرض الله". هل يمكنك أن تشرح هذا المفهوم القرآني وكيف سيكون تأثيره في إدارة حياة الأقليات المسلمة؟**

– تعبير (أرض الله) واحد من المفاهيم القرآنية المهمة، ويكمّله مفهوم قرآني آخر هو (خلفاء الأرض). فتعبير (أرض الله) يحدد الملكية الأصلية للأرض، وهو المعنى الذي يَرِد صريحًا في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ** يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ١٢٨]، في مقابل نسبة الكافرين الأرض لأنفسهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم، الآية ١٣]

فالعودة إلى مفهوم "أرض الله" هي عودةٌ إلى ثلاثة معانٍ مركزية: أولها حرية الحركة في أرض الله، وثانيها الإعمار والعُمران؛ لأن الأرض إرثٌ للصالحين، وهذا إخبارٌ وإنشاءٌ أي أنه طلبٌ إلى الصالحين بوراثة الأرض جاء بصيغة الإخبار، وثالثها تثبيتُ معيار الخير العام، كما ورد في الحديث النبوي عن عُرْوَةَ قال: أشهد «أن رسول الله ﷺ قَضَى أن الأرض أَرْضُ الله، والعبادَ عباد الله، ومَن أَحْيَا مَوَاتًا فهو أَحَقُّ به»، وعن الزُّبَيْرِ بن الْعَوَّامِ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الْأَرْضُ أَرْضُ اللهِ، وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللهِ، فَحَيْثُ وَجَدَ أَحَدُكُمْ خَيْرًا فَلْيَتَّقِ اللهَ وَلْيُقِمْ»، ونحن نطرح هذا بديلاً عن تقسيم العالم الذي شاع في التراث الفقهي إلى دار إسلام ودار كفر.

*** ظهر في سيريلانكا نقاش في الأونة الأخيرة حول أيهما يُقدَّم: مصالح الوطن أم مصالح المسلمين في البلد؟ وما الذي تقدمه مقاصد الشريعة في هذا السياق، فالبعض يحاجج بأن المقاصد تقرر تقديم مصالح الإنسانية على مصالح الجماعة المسلمة، في حين يجادل البعض الآخر بأنه يجب تقديم مصلحة المسلمين لأنهم أقلية؛ فإن لم يهتموا لأمرهم فلن يهتم بهم أحد.**

– جاءت الشرائع بأجمعها – وليس فقط شريعة الإسلام – لتحقيق مقاصد كبرى هي ما عبر عنه الفقهاء بالضروريات الخمس: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل أو العرض والمال، وهي أساس المصالح وأصولها الكبرى، إذ لا تستقيم الحياة الإنسانية من دونها ولذلك اعتُبرت ضروريات. وتنزيلها على الواقع يحتاج إلى

تفقه كبير، وإلى دراية بسلّم الأولويات في التنزيل، فحفظ دين الجماعة يأتي في المرتبة الأولى من الضروريات، ولذلك قُدم حفظ الدين على حفظ نفس الفرد وشُرعت التضحية بالنفس لأجل حفظ الدين في موضوع الجهاد الواجب، ولكن الأمر يختلف لو تحدثنا عن موازنة بين حفظ دين الفرد ونفس الفرد، كمن أُكره على النطق بالكفر، فيباح له النطق بالكفر لحفظ نفسه مثلاً.

وبالنسبة لسؤالك عن التعارض بين حفظ مصالح جماعة المسلمين مع جماعة المواطنين، فلا ينبغي أن يقام هذا التناقض أصلاً، فحفظ ضروريات الحياة الخمس هو حفظ لضروريات المسلمين والمواطنين معًا، وينبغي أن تكون هذه الرؤية الحاكمة للتصورات. وإن قام تعارضٌ ما بين قيمتين فيجب أن نبحث في هذا التعارض هل هو تعارض حقيقي أو موهوم؟ كثير مما يبدو لنا تعارضًا هو تعارض موهوم أو ملغوم. فالجمع بين مصالح المسلمين ومصالح المواطنين في مجتمع يقوم على العدل أمرٌ بدهيٌّ، وإنما ينشأ الإشكال من غياب العدل وهنا تنشأ التناقضات، وحينها يجب التوجه إلى المطالبة بتحقيق قيمة العدل بين الناس لا بين المسلمين فقط.

*** قلتم في مقابلة تلفزيونية على قناة "فورشباب": إن الفكر المقاصدي له ثلاثة اتجاهات هي: ١. استعمال المقاصد كجزء من أصول الفقه، و٢. استعمال المقاصد كفلسفة لترشيد العلوم الإنسانية و٣. الاستعانة بالمقاصد فقط دون النصوص وهي أطروحة علمانية في الغالب؟ ما الاتجاه الذي تراه؟**

– شيوع المقاصد في العقدين الأخيرين أدى إلى ابتذالها كثيرًا، وإساءة استعمالها من جهتين: جهة المشتغلين بالدراسات الإسلامية، وجهة المشتغلين بالدراسات الإنسانية. فقد تم توظيف المقاصد باتجاهات شتى، البعض يوظفها للدفاع عن الفقه التقليدي، والبعض يوظفها للدفاع عن الخروج من سلطة النصوص الدينية، والبعض يوظفها لتبيئة الأفكار الحديثة داخل التصور الإسلامي. البعض يعتبرها فلسفة للفقه، والبعض يعتبرها فلسفة للدين. لقد تم الإسراف في التعويل على فكرة المقاصد حتى تشظت وأصبحت سائلة وطيّعة للجميع، حتى المدافعون عن الأنظمة الاستبدادية استعملوا المقاصد لتأييد ذلك، وهو ما يذكرنا بإشارة مهمة أشار إليها رشيد رضا وهي أن العلماء أبدوا تخوفهم من اتخاذ أئمة الجور للقواعد العامة حجة لاتباع أهوائهم وإرضاء استبدادهم. ومن المهم التأريخ لفكرة المقاصد وكيف ظهرت وكيف تطورت، وحدودها أيضًا. وقد قمت بهذا في دراستي "الوظيفة المقاصدية: مشروعيتها وغاياتها" التي نُشرت في مجلة "إسلامية المعرفة". والمهم أن تبقى المقاصد في حدودها بوصفها فلسفة للتشريع فهي "مقاصد الشريعة"، وهي تعكس فلسفة أخلاقية تَنظم أحكام الفقه بناظم أخلاقي يسر في جميع أوصالها، وهي إنما

نشأت عن اكتمال التقليد ومنظومة الأحكام الفقهية فلم تكن مصدرًا للفقه بل ناتجًا عنه بعد التراكم التشريعي الطويل.